في الحقول

لم يعد الناس يعيرون كبير اهتمام للحقول بالدوار؛ فحياتهم تغيرت، وتغيرت معها الطباع، والعادات، وأساليب العيش، وحتى العلاقات الإنسانية، وعلاقات الإنسان بالطبيعة بكل ما تحويه تغير.

صار الكل يجري، اليوم، وراء مغريات العيش والملذات. فقد كانت الحقول، فيما مضى، تمثل مصدر القوت، ورمز الخصب، وينبوع الحياة. كانت بمثابة بيوت يأوي إليها السكان. يقدسون أشجار النخيل ويوطدون علاقات التزاوج بينها في كل موسم لقاح.. لكن، اليوم، لم يعد الناس يعبؤون بتلقيح النخيل. كل همهم الجري وراء المال والثروة، وشيء من العيش الكريم.

وبما أن ما تدره الحقول من أرباح، اليوم، قليل، إن وجد، فإنهم يسافرون نحو المدن؛ كي يشتغلوا هناك بأثمان بخسة، وإن بدت لهم في البداية محترمة. إذ سرعان ما يصدمون بو اقع المدن: توفير سومة الكراء، وثمن تذاكر التنقل داخل المدينة، ومصاريف العيش، وما تفرضه المدن من كماليات العيش، وبروتوكولات، واهتمام مفرط بكل خبايا الجسد الزائلة.

يصدمون، ثم يعودن من حيث انطلقوا. يعودون إلى *"درجة الصفر"* كما قال *رولان بارت*. لكنهم حينما يعودون، ينقلون كثيرا من عدوى المدن؛ كالبناء الإسمنتي، ومحاولة جعل الجسد يعيش التفاصيل الرتيبة والمملة، وترك أعمال الحقول، والجلوس على حافة الطرقات، ولعب الورق.

الحقول لم تعد كما كانت في السابق؛ لم تعد تستقبلك برو ائح الأرض الزكية، وعبير الأزهار والورود، ور ائحة البلح والتمر. حتى روث البهائم لن تشم ر ائحته كما عند أجدادنا و آبائنا. الفلاحون الصغار، الذين لا يزالون متشبثين بالأرض، يرمونها بالأسمدة لا بالروث .لا تهمهم جودة المحصول، ولا كونه طازجا طيبا. ما يهمهم هو الربح. يقتلون الأرض، وهم لا يشعرون.

أتذكر كبور، رحمة الله عليه، حينما كنا صغارا، وكنا نتسارع في الخريف لأكل الكروم والجزر في حقله. فنجده يحرق الأرض. نستغرب من هذا الفعل الذي نصفه بالشنيع. وكنا نقول في أنفسنا: "لو علمت منظمات الحفاظ على البيئة، وجمعيات الرفق بالحيوان، أنك تحرق الأرض وتحرق معها الطفيليات، والحشرات وكل خلق من مخلوقات الله تحت هذه الأرض، لحكمت عليك بالإعدام حرقا؛ فعلى هذه الأرض وتحتها كل شيء.." وكنا نسخر من فعله، ونصفه بالحقد.

لكن حينما كبرنا، قرأت في دروس البيولوجيا، أن الأرض المحروقة أكثر إنتاجا وخصوبة. تعجبت كثيرا، وتذكرت كبور! كيف لهذا الذي لم يجلس يوما على طاولة أن يعرف كل هذا؟! لكن الأستاذ أضاف أن الخطورة الحقيقية تكمن في هذه الأسمدة الكيماوية. حينها أدركت أن ما نعيشه من تطور وحداثة واختراعات هو ما يقتلنا ويقتل الحياة على الأرض. إن الإنسان أسوأ مخلوق، وأشده حقدا وخطرا على حياة الآخرين.